الاستقرار الأسري من بيت النبوة

إيمان إسماعيل عبدالله
مديرة حملة «أهل القرآن العالمية»
iabdullah@ahlalquran.com

حرص الإسلام على الأسرة الطاهرة والعفة والشرف والنقاء، فالخالق العظيم سبحانه، يعلم في أي الأمور صلاحنا وخيرنا ومنفعتنا ورفعة شأننا، فجعل لنا المنعة والنعيم في حياة أمنة مستقرة هانئة، وكانت الأسرة الأولى في حياة البشرية هي آدم وحواء، واستمر هذا الأمر الأصلح، وهذا النظام الأكمل، منذ ذلك الحين، فكل شذوذ أو بُعد عنه، فيه الضياع والخسران، وفيه إهدار لكرامة الإنسان وكرامته، وما يتبع ذلك من شقاء ودمار.

وفي نظام الأسرة المسلمة، تكمن السعادة في أعظم صورها وهيئتها. قال الله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الروم: ٢١). وبهذا تكون الأسرة من نعم الله التي تستوجب الشكر والعرفان. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾ (النساء: ١). وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال». ومن مفهوم الآية الكريمة والحديث الشريف يظهر جليا أن النساء والرجال من أصل واحد. ولكل منهما رسالته في الحياة التي أرادها الله عز وجل، وخلقهما لأجلها واستمرارها وبقاء النوع البشري، هذا في الدنيا إلى أجل معلوم عنده سبحانه. مكانة المرأة في الحياة لها رسالتها التي هيأها الله لها، ووظيفتها المهمة التي لا يقوم بها غيرها، فهي الأم والأخت والزوجة والبنت، ولكل منهن دورها في الاستقرار الأسري، ولأهمية بناء واستقرار الأسرة جعل الله سبحانه وتعالى ضوابط شرعية ذكرها في العديد من سور القرآن الكريم، وسلط عليها الضوء لأهميتها في الحفاظ على كيان ومكانة الأسرة، وقدم الرجل على المرأة في أمر فطري، فقد خلق الله آدم وسواه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وخلق حواء من ضلع آدم، فهي جزء منه وتابعة له ومنتسبة إليه، كنسبة الجزء إلى الكل، ونسبة الفرع إلى أصله، ومن هنا انجذب كل إلى صاحبه، وقد قال الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ (النساء: ٣٤)، وضرورة الحياة تقتضي أن يكون لكل مجتمع قائد وراند ورئيس ومسؤول، لتستقيم الأمور وتنظم المصالح المرجوة منه.

والأسرة مجتمع صغير يتكون منه المجتمع الكبير، ثم المجتمع الأكبر، فالرجل هو القيِّم على الأسرة بما أنعم الله عليه من فكر مميز، وعقل أكبر، وتجربة من بعض الرجال، ولكن الحكم هذا بالنسبة للأغلب الأعم.

وقوامة الرجل لها نتائجها وتبعاتها، فهي تكليف قبل أن تكون تشريفا، ويتجلى ذلك في قول الله تعالى حين ظهرت عداوة الشيطان للإنسان: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ (طه: ١١٦-١١٧)، فعداوة الشيطان لهما بالإخراج من الجنة، أما الشقاء فهو خاص بآدم وحده، بدليل قول الله تعالى: ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك ألا تجوع ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ (طه: ١١٧-١١٩)، فالرجل والمرأة متساويان في أمور، وتزيد مسؤولية الرجل في أمور أخرى يتحمل نتائجها وحده. قال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾ (البقرة: ٢٢٨).

أول بنود الاستقرار الأسري

حقوق الزوجية أوضحها القرآن الكريم، فقد قال الله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾ (البقرة: ٢٢٨).

الأسرة مجتمع صغير يتكون منه المجتمع الكبير، ثم المجتمع الأكبر، فالرجل هو القيِّم على الأسرة بما أنعم الله عليه من فكر مميز، وعقل أكبر، وتجربة من بعض الرجال، ولكن الحكم هذا بالنسبة للأغلب الأعم

فهذه هي الدرجة المراد بها القوامة التي هي القيادة والرئاسة والمسؤولية التي تقع على عاتق الرجال دون النساء. قال الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ (النساء: ٣٤). فالقوامة نظام إلهي ضروري للحياة. فلا بد لكل مجتمع من رئيس مسؤول يرعاه ويدافع عنه. والأسرة مجتمع يتطلب ذلك. وذكر العلماء بعض الأمور التي فضل بها الرجال مثل زيادة العقل والدين والولاية والشهادة والجهاد والجمعة والجماعات وكون الأنبياء من الرجال. وكذلك السلاطين والأمراء. وكون الرجل يجوز له أن يجمع بين أربع زوجات في الدنيا. وله أكثر من ذلك في الجنة. وكون الطلاق والرجعة بيد الرجل. وقد يكون من بين النساء من هي أقوى جسما. وأكبر عقلا. وأكثر فهما. من بعض الرجال. لكنها لا تنفرد بالقيادة أو الرئاسة. كما أن الرجل عليه نفقة زوجته. وقبل ذلك عليه دفع المهر. ولا يجب على المرأة ذلك. وليست القوامة تجبرا وتسلطا. ولا كبرا ولا غطرسة. ولا فرض إرادة بالحق وبالباطل. وانما هي تنظيم لإصلاح الأسرة وتعاون في أمور الحياة.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه. عن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانا احسنهم خلقا. وخياركم خياركم لنسائهم». وروى الترمذي أيضا عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله. وانا خيركم لأهلي». وفي رواية لابن عساكر عن سيدنا علي كرم الله وجهه. قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وانا خيركم لأهلي. ما أكرم النساء الا كريم. ولا أهانهن إلا لئيم». وفي رواية أخرى «يغلبن الكريم.. ولما سمع عمر رضي الله عنه ذلك قال: «أحب أن أكون كريما مغلوبا خيراً من أن أكون لئيما غالباً».

الاستقرار الأسري والعشرة بالمعروف

مسيرة الحياة الزوجية تحتاج إلى تعاون تام بين الزوجين. ويستلزم ذلك العشرة بالمعروف. فلا يتصيد كل منهما لصاحبه الأخطاء. ولا يظلم أحدهما الآخر في أي أمر من الأمور. بل لا بد من المصارحة والتفاهم فيما بينهما بالود والكلام الطيب. فلا يوجد إنسان كامل من كل الوجوه إلا سيدنا محمد ﷺ. فعلى الرجل أن يتغاضى عن بعض الهفوات التي لا تضر في الدين. وعلى المرأة مثل ذلك. فالمفهوم من حياة النبي ﷺ مع زوجاته أنه لم يغضب أبدا إلا إذا انتهكت حرمات الله. فعندها يكون شديدا وحازما حتى لا يُستهان بأمر من أمور الدين. قال الله تعالى:

﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ (النساء: ١٩).

والمراد بالمعروف كل ما لا اعتراض عليه من الشرع. فيجب الإحسان في النفقة والكسوة والمؤانسة. وإن كانت ممن تخدم وجب عليه إخدامها ما دام مستطيعا لذلك.

وان كرهتموهن. لدمامة أو سوء خلق أو أفعال وأقوال غير الفاحشة. فهذا مما يندب فيه الاحتمال ما دامت عيوبا صغيرة. فعسى أن يرزقه الله منها أولادا صالحين. فيكون خيرها غالبا على شرها. وحسناتها أكثر من سيئاتها. فلا يبغضها بغضا كليا يحمله على فراقها. فهي الصاحب بالجنب الذي أمرنا الله بمراعاة الاحسان معه ضمن من يجب علينا الاحسان اليهم. قال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ (النساء: ٣٦).

الاستقرار النسري يقوم بالصبر واحتمال الأذى

من دواعي دوام العشرة. الصبر على أحوال النساء واحتمال الأذى منهن. وهذا يستوجب على الرجل أن يكون قوي الشخصية. حازما في الأمور التي تؤدي إلى ضبط السلوك واستقامة الأحوال. وليس معنى هذا القسوة والجبروت والتحكم وفرض السيطرة. فقد كان النبي ﷺ يحتمل الكثير من أحوال النساء. ويصبر على أحوالهن ما دامت لا تكون هناك مخالفات شرعية. وبلغ من تدليله ﷺ لهن أن حرّم على نفسه بعض المباحات إرضاء لهن حتى نزل قول الله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرمْ ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾ (التحريم: ١).

فهم السيرة النبوية يؤدي إلى استقرار الأسرة المسلمة

الرسول ﷺ بشر رسول كما سبق القول. وحين نتكلم عن سيرته عليه الصلاة والسلام وحال بيت النبوة لا يكون كلامنا دفاعا عن موقف غير مناسب. أو عن عمل يحتاج إلى تصحيح. وانما يكون الكلام محاولة لفهم السيرة النبوية. والوقوف على حكمة التشريع التي أبداها سيد الخلق وسيد الأولين والآخرين. والرسول عليه الصلاة والسلام مؤيد بالوحي في جميع أحواله من الأقوال والأفعال وهو مبلغ عن الله عز وجل وهذه رسالته في الحياة وبطبيعة الحال تختلف كثيرا

عن حياة الأفراد الآخرين حتى لو كانوا من الملوك والرؤساء والزعماء والساسة. وبيوت الملوك والزعماء تبدو في كامل الزينة والهيئة من أثاث فاخر ومظهر كامل للنعمة فضلاً عن الموائد العامرة بألوان الطعام الطيب والفاكهة الكثيرة.

أما بيوت زوجات النبي ﷺ فكانت خالية من كل هذه المظاهر، وكانت الحياة فيها خشنة علماً بأن هؤلاء الزوجات بنات كبراء وبنات السادة في أقوامهم. ومع هذه الحياة الخشنة كلهن آثرن العيش معه وأحببن عشرته، ولم تفكر واحدة منهن أن تنفرد به دون الأخريات أو يكون الرسول عليه الصلاة والسلام خاصاً بها وحدها. وكانت بيوت النبي ﷺ صورة كاملة للتشريع الإلهي فيه. مكشوفة معلوماً ما بداخلها من أثاث أو طعام. روى البخاري وأصحاب السنن عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها. فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله. وأتقاكم له. لكني أصوم وأفطر. وأصلي وأرقد. وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني». هذا السلوك المعتدل المتلائم مع الطبيعة البشرية ومع الفطرة السليمة.

خصوصيات الاستقرار الأسري

■ جعل الله سبحانه وتعالى المودة والرحمة والاحترام والتوقير والتقدير أساس الاستقرار.

■ رضاؤهن بالعيش بالحياة الكريمة التي يوفرها الزوج لهن من نفقة وزينة الحياة وقوله تعالى لزوجات النبي ﷺ: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ (الأحزاب: ٢٨).

■ تشديد العقوبة عليهن ومضاعفة العذاب لمن تذنب أو تأتي بفاحشة رسالة لكل مسلمة لأنها تدخل في إطار التعليمات والتوجيهات التي حث الله سبحانه وتعالى عليها زوجات النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يُضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ (الأحزاب: ٣١).

■ أمر الله سبحانه وتعالى نساء المسلمين بعدم الكلام اللين مع الرجال أو الرقة معهم في الحديث؛ لأنهن في درجة عالية عن بقية النساء. قال الله تعالى: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً﴾ (الأحزاب: ٣٢). رسالة موجهة للمرأة المسلمة من خلال زوجات الرسول ﷺ. كيفية المحافظة على النفس والعرض والأسرة والزوج واحترام مكانته وقيمه ومبادئه من خلال هذا الخطاب السماوي.

■ الاستقرار الأسري يُلزم المسلمة بعدم إظهار الزينة لغير الزوج. والتزام البيت لأهمية استقراره ولها الأجر العظيم لقوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣). وهنا خطاب من نوع آخر يخاطب الله فيه زوجات النبي وهم الذين علمونا كيف يكون الاستقرار الأسري بشكله المطلوب وكما أمر الله به ورسوله إلا للمرأة العاملة التي يجب عليها أن تحترم الحياة الزوجية وخاصة المرأة التي خرجت للعمل من أجل مساعدة الزوج على صعوبة الحياة ودعم مؤسسة الاستقرار الأسري اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ودينياً وعملت في جميع مجالات العمل يجب أن تعرف الحقوق التي يجب عليها مراعاتها للحفاظ على زوجها وبيتها مهما كانت وظيفتها. فالرسالة الأولى تتطلب منها أن تكون زوجة صالحة بكل المعنى. وتلتزم بالتشريع والقوانين التي فرضها الإسلام. وواضح ما عليها من حقوق وواجبات تجاه أسرتها ومجتمعها.

ثم على نساء النبي ﷺ رسالة واجبة هي إبلاغ الدعوة الإسلامية وإبلاغ آيات القرآن والسنة النبوية من أقوال وأفعال. خاصة ما يلزم النساء في معرفة أصول الدين وأحكامه. قال الله تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ (الأحزاب: ٣٤).

اللهم اجعل بيوتنا آمنة مستقرة وسائر بيوت المسلمين. اللهم اجعل الاستقرار الأسري طريقنا إلى الجنة. واجعلنا ممن يطعن أزواجهم كما أطاعت نساء الرسول ﷺ نبيهم وزوجهم. اللهم آمين.